إلهام جمال

قطعة شيكولا..
بصوص الدماء البارد

ما بعد منتصف الليل..

موعدي المفضل لزيارة ثلاجة منزلنا المتواضع..

اتفحّص ما فيها لأختار منها ما يروق لي دون أن يراني أبواي أو أحد من إخوتي، آخذ منها ما أخجل من أخذِه في وضح النهار، وذلك حتى لا أسمع كلماتهم البغيضة وهم يربطون بيني وبين الجوع والفجع كما لو كانا صديقين لي منذ الأزل. وإذا بي في إحدى الليالي وأنا أتفحّص ما يحويه باب الثلاجة من مقتنيات، ألمح بعينيّ شذرًا ورقة سلوفان تحمل لونًا ما بين الأزرق والباذنجانيّ.. رُسِم عليها قطعة شيكولا ينساب من فوقها إناء يتدلّى من فمه سائل اللبن الأبيض، فأسمع صوت لساني وهو يتحرّك داخل ثغري ليبحث عن ماءٍ في هيئة لعاب يبلّلُ به جفاف حنجرته. وأرى يدي تمتد دون وعي منّي أو إرادة تختطف هذا الكيس اللي يحمل بين ثناياه تلك اللّعنة الشهية السوداء، والتي طالما ذبت فيها عشقًا، رغم الحرمان المُجبَر عليه تجاهها، مثلها مثل كل ما ينتمي إلى متاع الحياة..

فتحت الكيس، وأخذت ألتهم في نهمٍ القضمة تلو الأخرى، وأنا أشعر بسائل السيراتونين ينساب عبر وريدي ويعبر ثنايا جسدي، فيشعر بالسعادة تغمره..

ولكن كما هي الحياة..

لم يكن الطريق ممهدًا إلى النهاية، حيث التقطت أذناي صوتًا خافتًا يصدر من وراء باب حجرة أبي المغلق دائمًا..

فما كان من يديّ إلّا الارتجاف ليسقط الكيس منها وهو يحمل آخر قطعة سوداء.. انسدلت على الأرض لألتقط في عُجالة تلك النعمة الساقطة، فإذا بي أرى بعض النقاط الحمراء تنساب من فتحتي أنفي – كعادتها كلما خالجني شعور بالضيق أو الخوف – على قطعة الشيكولا اليتيمة داخل الورقة، فيتحوّل لونها من الأسود إلى الأسود الممزوج بلون الورد شديد الحُمرة.

أحملُها مسرعًا، وأُلقي بها في موضعها كما كانت من قبل. أُغلق الثلاجة في عُجالة يصاحبها الحذر، ثم أطير كما الفراشة إلى غرفتي قبل أن يلمحُني أحد.

صعدت إلى فراشي، أخفيتُ ملامح جسدي كاملة تحت غطائه، باستثناء ثقبين صغيرين عند رأسي، أحدهما مدخلاً للهواء، والآخر للمراقبة.

تصنّعت النوم عند قيام أمي بجولتها التفقُّدية بيننا نحن الأبناء الخمسة.. فرُحتُ في سُباتٍ عميق، لم يُرجِعُني منه إلّا صوت أمي في الصباح هامسةً لأبي الجالس إلى جوارها يتناول فطوره، قائلةً:

"أريد منك أن تجلب معك شيكولاتة جديدة عند العودة في المساء، فقد وجدت القطعة التي أحضرتها معك أول أمس موضوعة في الثلاجة مقطوعة ورقتها، ولم يتبقّ منها غير طرف أنملة ممزوجة بالدماء الباردة. وأنا أخشى أن يكون سُكّان البيت غير المرئيين يحبّونها ونحن نحرمهم من ذلك. لذلك، تذكّر أن تجلب قطعة جديدة يوميًا حتى لا يغضبوا منّا، ويصبُّوا علينا لعنَتهم، فنصبح من الخاسرين".

أصابني الذهول من كلامِ أمّي، لكنني في قرارة نفسي قطعت عهدًا بألا أحرم العفاريت من الشيكولا، ولا أمنع عقلي من السعادة بهذا الاكتشاف الثمين.